التّعدّديّة الدّينيّة في أوروبا: دراسة نقديّة

علي محمد أسبر

أستاذ الفلسفة في جامعة دمشق

ملخّص

عُني هذا البحث باستقصاء ظاهرة التعدّديّة الدينيّة في أوروبا، مُركّزاً على وقائع تاريخيّة محدّدة، تكشف أنَّ افتراض وجود إمكانيّة للتعايش بين الأديان يُعَدُّ افتراضاً مفتقراً للأدلة الكافية؛ إذ يكشف تتبُّع مسار التقدّم الزماني لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية أنَّ سلطة الإكليروس أخذت بالتصاعدّ إلى حدّ أصبح فيه اعتناق المذهب الكاثوليكيّ هو الطريق الوحيد للنجاة، ولم يكن الإصلاح البروتستانتي سوى ردّة فعل على المذهب الكاثوليكيّ، ولم يقبل هؤلاء المصلحون الأديان الأخرى مثل الدين الإسلاميّ، بل اتخذوا موقفاً سلبيّاً من الإسلام، واستمر هذا الموقف مع عصر الأنوار، فقد كان موقف إمانويل كنْت من نبيّ الإسلام دالاً على عداء شديد. كما كشف البحث أنَّ فلسفات التعدّديّة الدينيّة المعاصرة من قبيل فلسفة جون هيك ليس الهدف منها سوى دفع الناس نحو متاهات اللاأدريّة.

الكلمات المفتاحية:

التعددية الدينية- اللاأدرية- الكاثوليكية- كانط- البروتستنتية.

المقدّمة

عُني هذا البحث باستقصاء وتحليل مفهوم التّعدّديّة الدّينيّة، كما ظهر وتطوّر في تاريخ الحضارة الأوروبيّة؛ لكن تبيّن أنَّ هذا المفهوم لم يكن له أيّ تعينُّ حقيقيّ في الواقع الفعليّ لمسار التاريخ الأوروبيّ؛ ذلك أنَّ الاندفاعة الّتي أدّت إلى انتشار المسيحيّة في أوروبا كلّها، كان سببها اعتناق الإمبراطور الرّومانيّ «قسطنطين» للمسيحيّة، الّتي أصبحت الدّيانة الوحيدة المأخوذ بها من قِبَلِ النّاس في أوروبا، على نحو أفضى إلى تغييب الأديان الأخرى، سواء أكانت سماويّة أم وضعيّة. وتفاقمت هذه القضيّة وازدادت سوءًا طوال العصور الوسطى، بسبب قمع رجال الكهنوت لحريّة الاعتقاد. ولم تستطع حركة النّهضة الأوروبيّة أن تقدّم تصوّراً أصيلاً عن التعدّديّة الدينيّة، لأنّها كانت في حقيقتها ضدّ الدِّين بوجهٍ عامٍّ. فقد كان هدفها إحياء علوم وفلسفات وفنون اليونان والرّومان. كما اتّضح أنَّ حركة الإصلاح البروتستانتيّ لم تعمل على تكريس قبول الآخر-المغاير؛ بل كرّست ضرباً من الكراهيّة، بلغ ذروته في الموقف السّلبيّ لروّاد النّهضة الأوروبيّة من الإسلام. واستمرّ هذا الموقف السّلبيّ البروتستانتيّ من الإسلام وصولاً إلى عصر الأنوار الأوروبيّ، فبلغ العداء للإسلام أوجَهُ مع الفيلسوف الألمانيّ «إمانويل كنْت»، ذي الأصول الدّينيّة البروتستانتيّة. وظهر أنَّ محاولةَ «جون هيك» -وهو أحد أهمّ مُنظِّري فلسفة الدِّين المعاصرين- وَضْعِ نظريّةٍ في التَّعدُّديّة الدّينيّة مؤسَّسة على تطوير فلسفة «إمانويل كنْت» التّرنسندنتاليّة، ليست إلّا محاولة الغاية منها نشر اللاّأدرية. وعليه، تجلّت أهداف البحث في كشف أنَّ مفهوم التعدّديّة الدّينية لم يُطرح طرحاً أصيلاً في سياق الثّقافة الأوروبيّة، رغم التّحوّلات العديدة الّتي مرّت بها. وكان لا بدّ من توظيف منهج النّقد التّاريخيّ والمنهجيّ التّحليليّ والتركيبيّ، للوصول إلى الأفكار في مظانّها، وتكوين تصوّر موضوعيّ عن حلٍّ لإشكالية التّعدّديّة الدّينيّة..

■ أوّلاً: التِباسات ظهور التّعدّديّة الدِّينيّة في الحضارة الأوروبيّة

يرجع وجود اليهود في القارّة الأوروبيّة إلى أكثر من ألفي عام، لكن رغم وجودهم فيها، إلّا أنّهم لم يمارسوا أيّ نشاط تبشيريّ أو دعويّ، رغم انتشار ديانات الشّرك، ولم يبالِ اليهود بهداية الأوروبيين، لأنّهم يعتقدون أنّهم وحدهم الشّعب المُختار من الله، فقبلوا ديانات الشّرك، لا انطلاقاً من موقفٍ تسامحيّ يقبل الآخر، بل من موقف لامبالاة به. ولكن مع اعتناق الإمبراطور الروماني «قسطنطين» للمسيحيّة بدأت هذه الدّيانة بالانتشار في أوروبا؛ لكن تزامَنَ انتشارها مع عمليّات قمعٍ واسعة لكلّ المخالفين، وصولاً إلى العصور الوسطى الّتي تحوّل فيها بابوات الفاتيكان إلى حكّام مطلقين، وأصبحت محاكم التّفتيش أدواتهم لاجتثاث المغايرين، فلم تعرف أوروبا في تطوّرها التّاريخيّ أيّ معنى للتّعدّديّة..

أ. الانغلاق اللّاهوتيّ لشعب الله المُختار:الدِّين اليهوديّ وغياب تأثيره المباشر في مسار الحضارة الغربيّة

يمكنُ أن نطرحَ تساؤلاً يستحقُّ البحثَ عن إجابةٍ وافية، وهو: ما سبب أنّ الدِّين اليهوديّ لم يستطع أن يُحدِث، تاريخيّاً، في الغرب الأوروبيّ-الأمريكيّ بوجه عامّ أيّ تأثير حقيقيّ من جهة اعتناقه بين النّاس، رغم وجود حضور سياسيّ هائل لليهود في دوائر السّياسة الغربيّة؟! والحقيقة أنَّ انتشار الدِّين اليهوديّ بين الغربيين عبرَ التّاريخ، كان محدوداً؛ لأنَّ اليهود لم يكونوا معنيّين على الإطلاق بنشر ديانتهم بين الأمم والشّعوب الأخرى غير العبرانيّة، فهم يعتقدون اعتقادًا جازمًا بأنهم هم وحدَهم الشّعب المُختار، الّذي فضّله الله تعالى على شعوب الأرض. إذ ورد في التّوراة: «لأَنَّكَ أَنْتَ شَعْبٌ مُقَدَّسٌ لِلرَّبِّ إِلهِكَ. إِيَّاكَ قَدِ اخْتَارَ الرَّبُّ إِلهُكَ لِتَكُونَ لَهُ شَعْبًا أَخَصَّ مِنْ جَمِيعِ الشُّعُوبِ الَّذِينَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ.[1]» ولقد جاء القرآن الكريم مُصَدِّقاً لما ورد في التّوراة، فقال تعالى: **﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾**[2]. لكنَّ بني إسرائيل فهموا هذا الاختيار أو التّفضيل الإلهيّ لهم فهمًا مغلوطًا، فاللّه سبحانه وتعالى اختارهم وفضّلهم من جهة كونهم مؤمنين به، وداعين إلى عبادته بصفته إلهاً

1- التثنية (6:7).
2 -سورة البقرة: 47.

واحداً أحداً لا شريك له، لا من جهة كونهم شعبًا متميِّزًا عرقيًا من سائر شعوب الأرض. وللأسف توهّم الإسرائيليون أنَّ الدعوة إلى عبادة إله واحدٍ ليست إلّا لهم، فتحوَّلوا إلى شعب كهنوتيّ مغلق على نفسه انغلاقًا تامًّا، وظنّوا أنّهم فوق النّاس الآخرين. ولذلك وجدنا اليهود يعيشون عبر التّاريخ في جماعات متفرّقة منعزلة في مختلف أنحاء العالم في ما يُعرف باسم «الشَّتات». كما أنّنا نجد في تاريخ كلٍّ من المسيحيّة والإسلام، مُبشِّرين ودُعاة يهدون الشّعوب الوثنيّة إلى الإيمان بالله تعالى؛ لكنّنا لا نجد في اليهوديّة أشخاصاً من هذا القبيل على امتداد التاريخ، لذا نكتشف أنَّ اليهوديّة ديانة غير تبشيريّة على نحوٍ أفضى إلى انغلاق كلّ مجتمع يهوديّ-أينما وُجِد-على نفسه انغلاقاً تامّاً. وبذا تكون الدّيانة اليهوديّة مخصوصة بالنّسبة إلى معتنقيها، من هنا كان اليهود حياديين بإزاء الأديان الأخرى، ولا نجد لهم أيّ تأثير في الحضارة اليونانيّة ولا في الحضارة الرومانيّة، وارتدّ عدم التّأثير هذا على الحضارة الأوروبيّة الحديثة، فلم يعتنق الأوروبيون الدّيانة اليهوديّة، وبقي اليهود يعيشون في مجموعات صغيرة داخل أوروبا، ولأنّهم لم يكونوا معنيين، تاريخيًّا بعملية التّبشير الدينيّ، لم تزددْ أعدادهم، واستمرّ اليهوديّ يهوديًّا بالولادة.

هذا، ويرجع تاريخ وجود اليهود في أوروبا إلى نحو ألفي عام، فقد بدأت هجرات اليهود إلى أوروبا عام 27 م، أي قبل سيطرة الإمبراطوريّة الرّومانيّة على بلاد الشام[1].

غير أنَّ اليهود استطاعوا المحافظة على هُويتهم بعيدًا عن التّأثير والتّأثُّر، ولم يكونوا معنيّين بالدّرجة الأولى إلّا بالأعمال الاقتصاديّة، وجمع الثّروات. واستمرت طريقتهم في الحياة على هذا النّحو طوال العصور الوسطى، حتّى أنَّ الملوك والأمراء والحكّام المسيحيّين في أوروبا أُعجبوا ببراعة اليهود على المستوى الاقتصاديّ.

وبدأت تزداد هجرات اليهود إلى أوروبا لأسباب اقتصاديّة، بناءً على دعوات من زعماء المُقاطعات المحليّين من المسيحيّين، الّذين عملوا على استقطاب اليهود للاستفادة من خبراتهم الّتي تتعلّق بتنمية الاقتصاد، وزيادة الواردات وتطوير التّجارة[2].

1 - Jared Diamond, Who are the Jwes, pp.12- 19.

2 - Nina Row, The Jew, the Cathedral and the Medieval City: Synagoga and and Ecclesia in the 13th Century, p. 30.

وعليه، تبيّن أنَّ اليهود كُوِّنوا تاريخيّاً بصفتهم العِرْق أو القوميّة -الدّينيّة الوحيدة في التّاريخ، ولم يكترثوا على الإطلاق بوجود تَعَدُّديّات دينيّة حولهم؛ لا لأنّهم يقبلون التّعدّديّة؛ بل لأنّهم كانوا غير مُبالين بغيرهم، ولم تخدِم سيرورتُهم الاجتماعيّة في أوروبا، عبر تاريخهم الطّويل فيها سوى مصالحهم الاقتصاديّة. ولقد استطاعوا أن يتحوّلوا إلى قوّة ضاغطة على السّياسة الأوروبيّة تحديداً بعد الحرب العالميّة الثانيّة، مُستغلّين نفوذهم الاقتصاديّ المتراكم تاريخيّاً من جهة، ومستخدمين رواية الهولوكوست من جهة أخرى، ذلك لإعادة تجميع أنفسهم في فلسطين، وقد نجحوا في تحقيق مرادهم، فتحوّلوا إلى كيانٍ دينيّ -عرقيّ- سياسيّ، لا يمكن أن يُوصف إلّا بأنّه كِيان عنصريّ غاصب..

ب. روما: جدليّة التّحوّل السّياسيّ-اللّاهوتيّ: من الإمبراطور إلى البابا أو من مسارح الجلّادين إلى محاكم التّفتيش

أدّى اعتناق الإمبراطور الروماني «قسطنطين» (272-337 م) للدِّين المسيحيّ إلى تغيير تطوّر مسار الحضارة الغربيّة، تحديداً بعد إصداره لمرسوم ميلانو عام 313 م، القاضي بتكريس المسيحيّة بصفتها ديانة رسميّة للإمبراطوريّة الرّومانيّة. فانتقل الرّومان من ديانة الشّرك إلى اعتناق الدّيانة المسيحيّة، فكان «قسطنطين» وراء نشوء ظاهرة المسيحيّة اللّاتينيّة، وسببَ ازديادِ قوّة المسيحيّة، وتوسُّع انتشارها في أصقاع الإمبراطوريّة الرّومانيّة. كما أنّه هو من قام بتأسيس مدينة القسطنطينيّة في موقع مدينة بيزنطة، الّتي كانت مدينة يونانيّة، تقع على مضيق البوسفور بتركيا الحاليّة، وحملت هذه المدينة اسمه، وأصبحت عاصمة الإمبراطوريّة الرّومانيّة الشّرقيّة. لكن شاءت الأقدار أن أصبحت القسطنطينيّة نفسها نقيض روما، وصارت رمزاً للكنيسة الشرقيّة الأرثوذكسيّة في مواجهة الكنيسة اللّاتينيّة الكاثوليكيّة، تحديدًا بعد حدوث ما يُسمّى الانشقاق العظيم بين تينك الكنيستين عام 1054 م.

دعْ أنّه إلى جانب سلطة الإمبراطور السّياسيّة في روما، بدأت سلطة دينيّة ببسط سيطرتها تدريجيّاً على الحضارة الغربيّة في العصر الوسيط، وأعني بها السّلطة البابويّة، إذ أصبح منصب «البابا Pope»، يقع في أعلى ذروة الهرم الكهنوتيّ، ويتبوأ بصفته الحَبْرَ الأعظم الكرسيَّ الرسوليّ الّذي يرجع عهده إلى بدايات المسيحيّة، ولقد ازدادت سلطة الكهنوت في أوروبا الغربيّة بعد

سقوط الإمبراطوريّة الرومانيّة الغربيّة، الّتي استغرق سقوطُها نحو قرنين إلى عام 476 م. وانتهت مع سقوطها العصور القديمة، وبدأت العصور الوسطى الّتي اتّصفت، في أوروبا على وجه التّحديد، بوحشيتها وظلاميتها.

وكان كبار رجال الكنيسة الّذين شهدوا تدهور الإمبراطوريّة الرومانيّة، غير مبالين بالأحداث العاصفة الّتي تهدّدها، بقَدْر ما كانوا مُبالين بمنع أيّ تعدديّة مغايرة لرؤيتهم اللاّهوتيّة.

لقد قال القدِّيس «أوغسطينوس» العظيم نفسه أمام جَمْعٍ من النَّاس في «قرطاج»:» إنَّ كلَّ خرافات الوثنيين وعُبَّاد الأصنام، يجب أن تُباد، وهذا ما يريده الله، ويأمر به، ويُعلنه. كما أنَّ القدِّيس «مارتن» St Martin، الّذي هو أحد أشهر القدِّيسين الفرنسيين، اجتاحَ الرِّيف الغاليّ the Gaulish countryside ودمَّرَ المعابد، وأثار استياء السُّكان المحليّين بعد رحيله. وفي مِصْر هَدَم القدِّيس «ثاوفليس» St Theophilus، أحد أجمل المباني في العالم القديم. وفي إيطاليا قوَّض القدِّيس «بنديكتوس» St Benedict هيكلاً لأبولو Apollo. وفي سوريا أرعبت مجموعات من الرّهبان المسيحيّين الرِّيف، وحطّمت التّماثيل، وخرقت أسطح المعابد»[1].

بلغ قمع المخالفين أوْجَهُ مع إصدار البابا «غريغوري» التّاسع Pope Gregory IX، عام 1233 م أمراً بابويّاً بتأسيس محاكم التّفتيش البابويّة، لمتابعة آراء الهراطقة أو الخارجين على تعاليم الدِّين المسيحي، كسلطة أعلى من محاكم التّفتيش الأُسقفيّة الّتي أسّسها البابا «لوسيوس» الثّالث Pope Lucius III عام 1184 م، وبدأت هذه المحاكم عملها بإخضاع المتّهمين بالهرطقة، حتّى من المسيحيّين أنفسهم لعقوبات تقشعرّ منها الأبدان، فلم يعد أيّ إنسان قادرًا على التّعبير عن اعتقاده بحريّة. فكانت هذه المحاكم طعنةً نجلاءَ في صدر أيّ تنوّع فكريّ أو عَقَديّ يمكن حصوله في أوروبا. وبذا نكتشف أنَّ المجرى الفعليّ للتّاريخ الأوروبيّ، في ما يتعلّق بمساره الإنسانيّ، كان أُحاديّ الرّؤية، ونقيضاً مباشراً لفكرة التّعدّديّة.

ولقد استمرّت عمليات القمع بالازدياد في أوروبا لإزالة المخالفين من الوجود؛ لكن ما فعلته محاكم التّفتيش الّتي أنشأها في إسبانيا الملك «فرناندو» الثّاني (1542 1516- م) وزوجته الملكة

1-Catherine Nixey THE Darkening Age: The Christian Destruction of the Classical World,pp.20- 21.

«إيزابيلا» الأولى (1451-1504 م)، يُعَدّ من أكبر الفظائع في تاريخ الإنسانيّة. وكان تركيز محاكم التّفتيش الإسبانية على مسلمي الأندلس، من أجل إجبارهم على التّخلّي عن دينهم، لاعتناق المسيحيّة تبعاً للمذهب الكاثوليكيّ. وقد أُرغِمَ المسلمون بعد أن أُخْضِعوا لأسوأ وأشرّ أنواع التّعذيب على تبديل دينهم، وإذا رفض أحد المسلمين الدّخول في المسيحيّة وترك الإسلام، كان يُعاقب مباشرةً بالقتل.

«لم يَسْلَم أحد من التّعذيب، فقد تعرّض له الرّجال والنّساء وحتّى الأطفال. (...) ومارس المحقِّقون أشكالاً متنوِّعة من التّعذيب. كان تأثير شروط النِّعمة grace على المجتمع المُسلم مُدمِّراً. إذ انقسم هذا المجتمع وتقوَّضت وحدة أفراده، فقد أُجبرَ الكثيرون منهم على أن يصبحوا مسيحيّين من أجل إبقائهم على قيد الحياة، لتقديم الخدمات، بصفتهم عبيداً (...) وكان الهدف الرّئيس من التّعذيب، هو إضعاف إيمان المُعَذّب، من أجل ترك دينه واعتناق المسيحيّة»[1].

وعليه، يظهرُ كلَّ الظهور، أنَّ التّعدّدية ظاهرةٌ غير موجودة في مسار تاريخ أوروبا، منذ انتشار المسيحيّة فيها مع نهايات العصور القديمة، وطوال العصور الوسطى. وفي المقابل، لا نجد في التّاريخ الإسلاميّ كلّه أيّ محاولة لإجبار المسيحيّين على اعتناق الإسلام؛ ذلك أنَّ القرآن الكريم عزّز داخل كلِّ مسلم شعور الاحترام تجاه الآخر، تحديداً إذا كان مسيحيّاً. قال تعالى: ﴿**وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ**﴾[2].

ج. بزوغ فكرة التّعدّديّة في عصر النّهضة الأوروبيّة في روما: النّكوص إلى الوثنيّة لمواجهة سلطة الكهنوت.

بدأ عصر النّهضة في أوروبا، شاملاً القرنين الخامس عشر والسّادس عشر الميلاديين، ليكون الجسر الّذي تعبر عليه أوروبا إلى الحداثة متجاوزةً ظُلماتها القروسطيّة. ولقد عاد المفكِّرون النّهضويّون الأوروبيّون- تحديدًا في إيطاليا- إلى تراث الإمبراطوريّة الرّومانيّة قبل أن تنتشر فيها المسيحيّة، كمحاولة للخلاص من سلطة الكهنوت، وأُعجب هؤلاء المفكّرون أنفسهم بالنّزعة

1-Rasyidah Arshad, Syaidatun Nazirah Abu Zaher & Nurul Shahirah Abdul Samad, The Impact of Spanish Inquisition on Islamic Civilization,pp.202- 203.

2 - المائدة: 82.

الإنسانيّة الّتي كانت موجودة في الفلسفة الرّومانيّة، وهذه النّزعة نفسها كان قد استقاها الرّومان من الفلسفة الرّواقيّة، الّتي بلغت أوْج ازدهارها في روما في عصر الإمبراطور الفيلسوف «ماركوس أوريليوس» (121-180 م) الّذي اعتنق الفلسفة الرواقيّة فتحوّلت، فكريّاً، إلى رمز للإمبراطوريّة. وبدأت تزداد عمليّة الرّجوع إلى الفلسفة القديمة، على نحوٍ أعاد أمجاد الفلسفة اليونانيّة على وجه التّحديد، لتصبح مُنْطَلَقاً لثورة فكريّة جديدة مناقضة للفكرِ اللاّهوتيّ القروسطيّ. وكانت حركة النّهضة الأوروبيّة واسعة جداً، فقد شملت الفلسفة، والعلوم، والفنون، والهندسة المعمارية، والموسيقى، والتّكنولوجيا... فجاءت انقلاباً تامًّا على نمط الحياة الّذي كرّسته سلطة الإكليروس؛ لذلك جاء الموقف الكَنسيّ من النّهضة سلبيًّا إلى أقصى حدّ، وَوُصِمت حركة النّهضة بأنّها رجوعٌ سافِرٌ إلى الوثنيّة اليونانيّة والرومانيّة، بطريقة تتمظهر فيها علائم الإلحاد والمروق من الدِّين.

غير أنَّ هناك إنسانًا إيطاليّاً هو «لورينزو فيلا» (1407-1457) Lorenzo Valla)، استطاع أن يوجِّه ضربةَ لازبٍ إلى سلطة الكنيسة. فقد كان عالماً بمناهج النّقد التاريخيّ، أو ما يُسمّى النّقد الأعلى higher criticism، وهو ضربٌ من النّقد يرمي إلى استقصاء أصول أو ينابيع النّصوص التّاريخيّة، لكشف حقيقة وصدقيّة صورة العالم الّذي تقدّمه. ولقد تمكّن «فيلا» من تبيان أنَّ ما يُعرف تاريخيّاً بـ وثيقة مرسوم «هبة الإمبراطور قسطنطين»، ليست إلاّ وثيقة مزوّرة. ويزعم المصدّقون لهذه الوثيقة، أنَّ الإمبراطور «قسطنطين» العظيم وهب لـ«البابا»- رأس هرم الكنيسة الكاثوليكيّة- سلطة التحكّم بالإمبراطوريّة الرّومانيّة الغربيّة. وبذا قوَّضَ «فيلا» بكشفه لهذا التّزوير السّلطة الزّمنيّة للبابا، وفتح آفاقًا واسعة لحركة كبيرة، يقوم بها المتمرّدون على الكنيسة من أصحاب الميول المذهبيّة غير الكاثوليكيّة، على نحو يُفسح في المجال لانبثاق التّعدّديّة العَقَديّة... كان «فيلا» جريئًا إلى أبعد حدّ، إذ «شكّك في نظام الكنيسة للتّكفير عن الذّنب وصكوك الغفران»[1].

والحقيقة أنَّ من أهمّ الانعطافات الأساسيّة في تاريخ النّهضة الأوروبيّة، هو وقوع حَدَث تاريخيّ في مكان بعيد جغرافيًّا عن أوروبا، لكن كان له تأثير حاسم في تطوّر حركة النّهضة،

1 -Prosser, Peter E. «Church history s biggest hoax: Renaissance scholarship proved fatal for one of medieval papacy s favorite claims»

وهو سقوط القسطنطينيّة عام 1453 م، بيد السُّلطان العثمانيّ محمّد الثّاني الملقّب بـ«الفاتح».

ولقد تسبب استيلاء العثمانيّين على القسطنطينيّة، إلى تقديم اندفاعة جوهريّة للنّهضة الأوروبيّة، لم تكن هذه النّهضة نفسها ممكنة لولاها، وأعني بها هروب مجموعة من العلماء اليونانيين، الّذين يمتلكون مخطوطات يونانيّة نادرة في مُخْتَلِف العلوم، كانت الأساس لحركة هذه النّهضة[1].

ولا شكّ في أنَّ إحياء التّراث الثّقافي اليونانيّ بعامّة، أعاد للفلسفة اليونانيّة بخاصّة قدرتها على التجدُّد، وأصبحت مناهج الفلسفة اليونانيّة أساساً لنمط جديد من التّفكير، أخذ يسود بين أوساط فلاسفة النّهضة، الّذين أصبحوا شغوفين إلى أقصى حدّ بالأفلاطونيّة الحديثة، وفي مقدَّمة هؤلاء واضع ما عُرِف ببيان النّهضة الأوروبيّة وهو «جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا» (Giovanni Pico della Mirandola) (1463-1494 م)، وقد كان عنوان بيانه «خطبة عن كرامة الإنسان Oration on the Dignity of Man). واتّجه في هذا البيان –على نحو واضح-إلى توكيد الاتّجاه نحو قبول الإنسانيّة في تعدّديتها العَقَديّة والثقافيّة، في مقابل أُحاديةً النّظرة الكنسيّة الكاثوليكيّة الّتي كانت سائدة.

اعتقد «جيوفاني بيكو ديلا ميراندولا» -على طريقة محيي الدِّين بن العربيّ- أنَّ الأديان كلّها، من سماويّة ووضعيّة، هي أشكال مختلفة لعبادة إله واحد؛ ولذلك يمكن الوصول إلى الله عن طريق الأديان كلِّها، فالتّعدّديّة، في رأيه، حالة مطلوبة بحكم تنوّع البشر في أعراقهم وثقافاتهم ولغاتهم.

أكّد أنَّ الدّعوة إلى الإنسانيّة هي دعوة صوفيّة يمكن بلوغها بعبور ثلاث مراحل: التحوّل الأخلاقيّ، والبحث الفكريّ، والكمال النهائي في الهُويّة مع الحقيقة المطلقة، وهذا معيار عالميّ يمكن الاستناد إليه في أيّ تراث دينيّ[2].

وأخذت الحركة الإنسانيّة في عصر النّهضة تتسارع بالانتشار في أنحاء أوروبا، فنجد «إيراسموس»، (Erasmus) (1469-1536) وقد كرّس كتاباته للتّأكيد على أنَّ فهم الغرائز والقوى الطّبيعيّة هو أساس تنشئة الإنسان، وليس حصره في تربية كاثوليكيّة مغلقة، كما كان مؤمنًا بضرورة إحلال سلام عالميّ بين النّاس كافّة في مختلف أصقاع الأرض، وقبولهم على اختلافاتهم، لأنَّ

1 -Myles Hudson, Fall of Constantinople, Encyclopædia Britannica.
2 -Pier Cesare Bori. «The Italian Renaissance: An Unfinished Dawn?.

ذلك يُعَدّ أصلاً للوجود الإنسانيّ. وقد أعلى «إيراسموس» من قيمة النّاس كافّة، ورفض مركزيّة طبقة الكهنوت، وهاجم اللّاهوتيين هجوماً عنيفاً لا هوادة فيه. إذ قال: «إنَّ هناك دَنَساً في طريقتهم الهمجيّة، وتفتقر أدلّتهم إلى أيّ أساس أخلاقيّ»[1].

إلى ذلك، لا بدّ من التّركيز على قضيّة ذات أهميّة كبيرة في هذا الاتجاه، وهي أنّه رغم الدّعوات الّتي أطلقها النّهضويّون الأوربيّون لإحياء إنسانيّة الإنسان، إلّا أنَّ هذه الدّعوات نفسها لم تكن من بنات أفكارهم، وإنما ترجع في حقيقة الأمر إلى التّراث الفلسفيّ اليونانيّ، الّذي كان منتشراً في روما، قبل اعتناق الإمبراطور «قسطنطين» للمسيحيّة؛ ولذلك يمكن ترجيح أنَّ النّزعة الإنسانيّة في عصر النّهضة الأوروبيّة، ليست إلّا إعادة صياغة لفلسفة الرّواقيين العالميّة النّزعة، بإلباسها لبوساً جديداً. علماً أنَّ الفلسفة الرّواقيّة كادت تصبح في مرحلة من مراحل الإمبراطوريّة الرومانيّة دينَ الرومان الوضعيّ؛ لذلك ليست هذه النّهضة إلّا إحياءً لما أسماه اللّاهوتيون المتشدّدون «الوثنيّة».

■ ثانياً: إحياء التّنوّع العقائديّ والثقافيّ في الغرب لمواجهة الشّريعة الإلهيّة النّهائيّة.

لم تكن حركة الإصلاح البروتستانتيّ الّتي قام بها «مارتن لوثر»، سوى محاولة لتكوين مذهب مسيحيّ جديد مناقض للكاثوليكيّة، ولم تتّجه نحو إنجاز عمليّة تغيير حقيقيّ، بل أفضت إلى تكوين مذهب مغلق رافض للآخر، بدلالة العداء الشّديد للإسلام الّذي رسّخه «لوثر» في عقول أتباعه. ومن المُناخ البروتستانتي نفسه خرج «إمانويل كنْت»، وخرج بدعاوى فلسفيّة إشكاليّة، واتخذ موقفاً متعصّبًا بإزاء نبيّ الإسلام. واستأنف «جون هيك» فلسفة «كنْت» ليُطلق فكرة التّعدّديّة، لكن على أسسٍ متهافتة، من أجل تغييب حقيقة الدِّين النّهائيّ للبشريّة.

• حركة الإصلاح البروتستانتيّ وتقويض المركزيّة الكاثوليكيّة: بداية ملتبسة لمفهوم التّعدّديّة.

تزامنت النّهضة مع الإصلاح في أوروبا؛ لكن في حين قامت النّهضة على أسس علميّة-فلسفيّة، انبثق الإصلاح من إعادة النّظر في النّصوص المقدّسة، لتأويلها في ضوء جديد مختلف عن التّفسير القَطْعيّ للكنيسة الكاثوليكيّة. ولقد بدأ التّأريخ الفعليّ لحركة الإصلاح الدّيني مع

1 -Erasmus, The Collected Works of Erasmus, 3: 124.

«مارتن لوثر» (1483 1546- م)، الّذي رفض الخضوع لسلطة اللّاهوتيّين الكاثوليك، وقام بترجمة الإنجيل من اللّاتينيّة إلى الألمانيّة، فصار العهد الجديد في متناول العوامّ- من جهة فهمهم له كما يشاؤون- بعد أن كان منحازًا بحيّز الفهم الّذي يحدّده الفاتيكان. ولقد اخترق «لوثر» النّظام الكهنوتيّ الصّارم، فأقدمَ على الزّواج غير مبالٍ بالأعراف السّائدة في الرّهبنة المسيحيّة. وبعد أن تحلّق حولَه مؤيدون له، وتنامت دعوته بعد موته، أخذ تطوّر الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت يأخذ في مرحلة النّهاية طابع الهدوء، ويوحي بوجود قبول بالتّعدّديّة المذهبيّة؛ لكن من غرائب الأمور أنَّ «لوثر» نفسه، لم يكن مؤمناً بالتّعدّديّة، وإصلاحه يجب ألّا يُفهم إلّا بصفته تحرّرًا من سلطة الفاتيكان، وانقلاباً على المذهب الكاثوليكيّ، ورفضًا للأديان الأخرى. ذلك أنَّ «لوثر» نفسه كان معاديًا لليهود، وطالبَ بطردهم، وحرّض على حرق كنائسِهم[1].

يتبين أنّه -حتّى مع عصر الإصلاح- لم ينجلِ مفهوم التّعدّديّة الدّينيّة حتّى على مستوى التّفكير؛ وإنّما كان سبب التّعدّديّة هو انقسامات مذهبيّة حدثت في واقع المجتمع الأوروبيّ داخل مجراه التّاريخيّ، وبقيت هذه الانقسامات دافعاً لإراقة الدّماء بين المسيحيّين أنفسهم. ولا توجد أيّ دلائل تاريخيّة تثبت أنَّ قبول الآخر-المختلف دينيّا- كان أمراً موجوداً في أوروبا، حتّى مع حركة الإصلاح البروتستانتيّ، فهذا الإصلاح في حقيقته الجوهريّة، لم يكن سوى انشقاق ناجح على الكنيسة الكاثوليكيّة.

حرّض «لوثر» على اضطهاد الرّوم الكاثوليك، والقائلين بتجديد المعموديّة Anabaptista والمعتقدِين باللّاثالوثيّة[2].

هذا، ومثلما لم ينجح الإصلاح في تكريس التّعدّديّة عن طريق إجراء عملية قبول متبادل لمذاهب مختلفة ضمن الدّين المسيحيّ نفسه، لم ينجح أيضاً في ترسيخ فكرة قبول أديان أخرى إلى جانب الدِّين المسيحيّ.

لقد كان «لوثر» رغم نزعته الإصلاحيّة المزعومة عدوًّا لدودًا للإسلام، فبعد اطّلاعه على القرآن

1 -Hendrix, Scott H. «The Controversial Luther.

2 -Nontrinitarianism (Schaff, Philip: History of the Christian Church, Vol. VIII.p, 706.

الكريم بترجمة لاتينيّة، عكف على وضع عدد من المؤلفات انتقد فيها الإسلام»[1].

وإذا تأمّلنا في الأفعال الّتي قام بها مصلح بروتستانتي آخر هو «جون كالفن» (1509-1564 م)، لتأكدنا أنَّ هذا الإصلاح لم يؤسِّس سوى لنظرة أَحاديّة مغلقة، ولم يتّجه البتة إلى تكريس مفهوم التّعدّديّة الدّينيّة، وأكبر دليل على ذلك هو أنَّ «كالفن» كان ينظر إلى القرآن الكريم بصفته نصًّا شيطانيًّا (devil text)»[2].

دعْ أنَّ «كالفن» كان وراء إعدام العالِم الإسبانيّ «مايكل سيرفيتوس» (Michael Servetus) (1511-1553 م)، الّذي يُعَدّ من أهم نَقَلة العلوم الإسلاميّة إلى أوروبا، إلاّ أنه قدّم موقفًا نقديًّا بإزاء الثّالوث، فما كان من «كالفن» إلاّ أن أفتى بالحكم عليه بالإعدام، وأُعدِم «سيرفيتوس» حرقًا وهو حيٌّ، من دون شفقةٍ ولا رحمة[3].

يظهر جليّاً أنَّ حركة الإصلاح الدينيّ الأوروبيّة لم تؤكِّد مفهوم قبول الآخر، وإنمّا أكّدت نظرة أَحاديّة مغلقة، ولم يكن ما سُمِّي إصلاحًا سوى إثبات لمذهبٍ دينيّ جديد، يتّجه أتباعه إلى إيجاد فسحة وجوديّة له، دون أيّ احترامٍ للأديان الأخرى.

• إمانويل كنْت وإشكالية الجذور الفلسفيّة-التّرنسندنتاليّة (المتعالية) لمفهوم التعدّدّيّة الدّينيّة: فشل تمييز كنْت بين الدِّين العقليّ والدِّين الموحى.

تحدّر «إمانويل كنط » من عائلة تتبع طريقة «مارتن لوثر»، فنشأ في مُناخ تسيطر عليه التّعاليم البروتستانتيّة، ولذلك كان واعيًا على نحوٍ عميق، بخصوصيّة التّجربة الدّينيّة وأهميتها في حياة الإنسان، فدخل «كنْت» إلى عالم الفلسفة من بوابة العقيدة اللّوثريّة، ويمكن أن يكون كتابه «نقد العقل المحض»، الكتاب الأكثر تهديداً للفلسفة عبر التّاريخ، لأنّه كتاب قد يَظنّ قارئه غير الخبير، أنّه إسهام فلسفيّ عظيم؛ بينما هو في الحقيقة تقويض نهائيّ لإمكانيّة المعرفة الفلسفيّة!

1 -Daniel Goffman, The Ottoman Empire and Early Modern Europe, Cambridge: Cambridge University Press, 2002, p.163.

2-Katharina Beeler, Calvin's Attitude Toward the Turks: Negative Impact on Ministry, Dialogue and Missions Among Muslims?.

3 -Verdict and Sentence for Michael Servetus (1533) pp. 268–270.

لقد أكّد «كنط» في «نقد العقل المحض»، أنّه لا يمكن لأيّ إنسان أن يصل إلى معرفة ما أسماه «الأشياءفي ذواتها»، ويقصد من ذلك أنّه لا يمكن لأيّ فيلسوف أن يزعم أنّه وصل إلى حقيقة الله، أو النَّفس الإنسانيّة أو العالم. فهذه الحقائق محجوبة عن العقل البشريّ، وسبب هذا الحَجْب هو أنّ تكوين العقل البشريّ نفسه غير مؤهّل له على الإطلاق، لبلوغ هذا النّوع من المعرفة. ذلك أنَّ مجال المعرفة الوحيد المُتاح للإنسان هو الظواهر، أيْ ظواهر العالم الّتي يمكن تلقّيها بالإدراك الحسيّ، وليست مَهَمّة العقل هي الذّهاب، ميتافيزيقيّاً، إلى أبعد من الظّواهر؛ بل مَهمّته هي تنظيم الإدراك الحسيّ لهذه الظّواهر، عن طريق أسس ترنسندنتاليّة. فمثلاً، إذا كانت الأشياء تُدْرَك حسيًّا في المكان والزّمان، فإنَّ المكان والزّمان نفسيهما غير قابلَين للإدراك الحسيّ، وهما في حقيقتهما أساسان ترنسندنتاليان، أو متعاليان موجودان في جِبِلَّة العقل البشريّ، ووظيفتهما هي الضّبط المعرفيّ للأشياء المُدرَكة، لاستقبالها في العقل داخل تصورين يُضفيهما العقل نفسه، هما المكان والزّمان اللّذان ليس لهما أيّ وجودٍ واقعيّ.

وإذا كان الوعي الإنساني-وفقاً لـ «كنْت»- يتحرّك فقط في حيّز الظّواهر الحسيّة، فمن أين له أن يقبض على حقيقة الألوهيّة؟ لذلك انتهى «كنْت» إلى تأكيد أنَّ الأحكام الميتافيزيقيّة عَبْر تاريخ الفلسفة هي أحكام موهومة، ولا توجد فيها أيّ إمكانيّة لتحقيق أيّ معرفة صحيحة بماهيّة الله.

قال الفيلسوف النِّمساويّ «كارل ليونارد رينهولد»(Karl Leonhard Reinhold) (1757-1832):

«إنَّ مصلحة المسيحيّة تتوافق مع نتائج نقد العقل المحض»[1].

والحقيقة أنَّ ما قاله «رينهولد» صحيح تماماً، فكان هدف «كنْت» من نقد العقل المحض، هو تقويض أيّ ضَرْب من ضروب التّفكير الإنسانيّ، باستثناء التّفكير اللاّهوتي المسيحيّ. ولا ريب في أنَّ «كنْت» كان مُتشدِّداً إلى أقصى الحدود، ورغم ما يُشاع عن نزعته الإنسانيّة، ورسالته التنويريّة، ودعوته إلى سلام عالميّ، إلاّ أنّه كان حاقداً على النبيّ محمّد ﷺ؛ ذلك أنَّ «كنْت» في مقال له بعنوان «مقال عن أمراض الرأس» Essay on the maladies of the head قالَ حرفيًّا: «التّعصُّب الدّينيّ يقود الشّخص المُستَهلَك فيه إلى أقصى الحدود، مثلما قادَ مُحَمَّدَاً، ليجلس

1 -Karl Leonhard Reinhold, Letters on the Kantian Philosophy (1786), 3rd Letter

على عرش الأمير، وقادَ جون الّذي من ليدن إلى المشنقة»[1].

لقد قارن «كنْت» هنا بين النبيّ محمّدﷺ وبين «جون» الّذي من ليدن (1509-1536 م) التّاجر الهولنديّ الّذي كان من المُعتقدين بتجديد العِماد، وادّعى النّبوّة في «مونيستر»، وأعلن نفسه ملكاً على القدس الجديدة، واتّبَعَهُ جمعٌ من النّاس، إلى أن انتهى تمرُّده، وحُكم عليه بالإعدام. وحاول «كنْت» هنا أن يُسيء إلى مقام النبيّ محمّدﷺ، عن طريق مقارنته بكذّاب هولنديّ، وإظهاره للنبيّ الأكرم بصورة المتعصّب الّذي استطاع أن يصبح زعيم أمّة. وهذا دليلٌ على أنَّ «كنْت» كان قليل البضاعة في التّاريخ، ولم يفهم سيرة النّبيّ الأكرم، ودفعته كراهيته إلى إصدار أحكام مغلوطة.

يتبيّن أنَّ «كنْت» لم يكن مع التّعدّديّة الدّينيّة، ورفض أيّ شكلٍ من أشكال الدِّين إلّا المسيحيّة، وإن كان يزعم، أنّه يُعنى بالتّأكيد على قوّة الضّمير في الإنسان للتّمييز بين الخير والشّرّ، إلّا أنَّ موقفه الدّينيّ النّهائيّ يتجلّى في تكريسه للدِّين المسيحيّ من بين سائر الأديان، ولا يمكن الذّهاب إلى أبعد من ذلك، لمحاولة استنباط أيّ رؤية تقوم على التّعدّديّة الدّينيّة في فلسفة «كنْت»؛ بل إنّ «كنْت» كان مع فكرة شعب الله المختار؛ لكنَّ هذا الشّعب المختار عنده لم يكن اليهود، فقد أراد أن يستبدل المسيحيّين باليهود، ليجعل أتباع الدّيانة المسيحيّة وحدهم، أفراد شعب الله المختار.

ولقد صرّح «كنْت» بآرائه على نحوٍ واضحٍ في كتابه «الدّين في حدود العقل وحده»، فتبنّى فكرة أنّه لا يمكن تحقيق فكرة شعب الله -بوساطة التّنظيم البشريّ- إلّا في شكل الكنيسة، قائلاً: « إذن، فإنَّ الدّولة الأخلاقية، في شكل كنيسة، أي كمجرد ممثّل لمدينة الله، ليس فيها في الواقع، في ما يتعلّق بمبادئها الأساسيّة، أي شيء يشبه الدّستور السّياسيّ. لأنَّ دستورها ليس ملكيّاً (في ظل البابا أو البطريرك)، ولا أرستقراطيّاً (في ظل الأساقفة والمطارنة)، ولا ديمقراطيّاً (كما هو الحال عند المتنوِّرين الطائفيّين). وأفضل ما يمكن تشبيهها به هو أسرة (عائلة) تحت رعاية أبٍ أخلاقي مشترك، وإن كان غير مرئيٍّ، فإنَّ ابنه القُدُّوس يعرف إرادته، ومع ذلك تجمعه رابطة دمٍ مع جميع أفراد الأسرة، ويأخذ مكانه في جعل إرادته معروفةً لهم؛ ولذلك فإنَّ هؤلاء يكرّمون الأب فيه،

1 -John of Leyden. Immanuel Kant, Essay on the maladies of the head, p.213.

وبالتّالي يدخلون مع بعضهم البعض في اتّحاد قلوبٍ طوعيٍّ وشاملٍ ودائم.[1]»

لقد حسم «كنْت» الأمر، فلا مكان لأيّ مؤمن بأيّ دين، بين الجدران الترنسندنتاليّة لكنيسة «كنْت» المخصوصة بالمسيحيّين وحدهم. فالدِّين في حدودِ العقل وحدَه عند «كنْت» هو الدِّين المسيحيّ، أيْ أنَّ العقل البشريّ-وفق مزاعم «كنْت»-مُجرَّدٌ من أيّ ميولٍ، أو عواطف، أو أهواء، سينتهي على نحو حاسم، إلى أنّه لا يوجد أيّ دين يمكن أن يُعوَّل عليه سوى الدِّين المسيحيّ. وهذا دليل على فشل كبير في طريقة فهم «كنْت» للفرق بين معنى الدِّين العقليّ ومعنى الدِّين الموحى. فإذا كان عقل الإنسان مهما كان عرقه أو لونه يدلّه على وجود خالق لهذا العالم، لا بدّ من طاعته بفعل الخير، واجتناب الشّرّ، فهذا يمكن أن نسمّيه دينًا عقليًّا؛ أمّا إذا كان عقل الإنسان، بصفته إنسانًا، لا يدلّه إلّا على المسيحيّة، بصفتها الدّيانة الوحيدة الصّالحة لعبادة الله، فهذا لا علاقة له على الإطلاق بالدِّين العقليّ، ويتّصل بتعصّبٍ أعمى يُلغي التّعدّديّة الدّينيّة، وينتصر لدينٍ بعينه من دون حجّةٍ قاطعة.

د. استئناف مشروع إمانويل كنْت: جون هيك ونزعته التّلفيقيّة-مفارقة وجود واقع متعالٍ للدّين داخل كلّ عقل إنسانيّ.

عوّل «جون هيك» (1922-2012 م) على فلسفة «كنت» النّقديّة، فنَقْدُ «كنْت» للعقل المحض، أوصله لنتائجَ محدّدة تتعلّق بامتناع معرفة العقل الإنسانيّ لله، فقد انطلق «كنْت» من فكرة جوهريّة بالنّسبة إليه، وهي أنَّ الميتافيزيقا الّتي استطاع الفلاسفة بوساطتها الوصول إلى معارفَ محدّدة عن الذّات الإلهيّة، لا يمكن أن تُعَدّ علمًا، ولذلك لا يمكن قَبول هذه المعارف الّتي وصلوا إليها بصفتها معارفَ صحيحة. وكان «كنْت» قد انتهى إلى أنَّ الله بصفته -الشّيء في ذاته- محجوب عن عقول البشر، ولا يمكن بلوغ الملكوت الإلهيّ إلّا عن طريق دين وحيد هو المسيحيّة، الّتي وضعها كنْت نفسه، وفقاً لرأيه، على أسس أخلاقيّة راسخة، وبذا يكون «كنْت» قد عَطَّل العقل والأديان كلّها –باستثناء المسيحيّة-ورفضَ إمكانيّة حدوث أيّ معرفة بالذّات الإلهيّة.

لم يقبل «هيك» هذا الاتّجاه في فلسفة «كنْت»، إلّا أنّه كان أكثر خطراً من «كنْت» نفسه في

1 -Immanuel Kant, Religion within the Limits of Reason Alone, p.93

طريقة تفكيره، فقد سلّم مع «كنْت» بأنَّ الله هو الشيّء في ذاته، لكنّه اختلف عنه بأنّه أكّد إمكانيّة تحصيل أيّ إنسان -مهما كان دينه-لضرب من المعرفة باللّه، ولكن تبقى هذه المعرفة في نظر «هيك» معرفة نسبيّة، أيْ إنَّ إمكانية معرفة الله مُتاحة للنَّاس كافّةً من أتباع الأديان المختلقة، سواء أكانت وضعيّة أم سماويّة.

يكمن جانب الخطورة هنا، بالنّسبة إلى طريقة تفكير «هيك»، في أنّه بإفساحه المجال لأتباع العقائد الدّينيّة كافّةً لبلوغ نوع من المعرفة –حتّى لو كانت نسبيّة- بالله، فهو في هذه الحالة يضع طُرقاً متعدِّدة جدًّا يمكن السّير فيها لتحقيق مفهوم عبادة الله. هذا من جهة، كما أنّه بإفساحه لهذا المجال نفسه، ظنَّ أنّه وجد الحلَّ الأمثل لإشكالية تعدّد المذاهب الدّينيّة، ذلك بأن يقبل أتباع الأديان بعضهم بعضاً من دون تكفير ولا اعتراض ولا رفض، هذا من جهة أخرى.

لقد بنى «هيك» رؤيته في هذا المقام على تطوير فلسفة «كنْت» النّقديّة، فبما أنَّ الشيّءفي ذاته (الله)، تبعاً لـ»كنْت» محجوب ترنسندنتاليّاً، أيْ بحكم تكوين العقل البشريّ عن المعرفة، فمن حقّ كلّ إنسان، تبعاً لـ»هيك» أن يعرف الله وفقًا لمذهبه الدِّينيّ، دون أن يعني ذلك إمكانية الوصول إلى معرفة حقيقيّة بالله. وبذا تكون معرفة الله النسبيّة مُتاحة ومشروعة على نحوٍ تامّ. ولكن يظهر أنَّ «هيك» يمارس هنا نوعاً من التّضليل، فإذا كانت الأديان كلّها مقبولة في نظر أصحابها، فهل هي مقبولة عند الله تعالى؟!

يقوِّضُ تفكير «هيك» فكرة وجود شريعة إلهيّة نهائيّة، يفرضها الله تعالى لتحديد أوامره ونواهيه للنّوع الإنسانيّ؛ لأنَّ «هيك» بقوله بكثرة من الأديان، وبما يترتّب عليها من كثرة في الشّرائع، يَفهم التّجربة الدينيّة وكأنها تجربة صاعدة من الإنسان إلى الله؛ غير أنّ العكس هو الصّحيح، فالدِّين هو في حقيقته شريعة أنزلها الله تعالى على النّاس من أجل هدايتهم، وفق مبادئ وقواعد وشروط، ولم يتركها للإنسان ليقوم بتحديدها، ولو تركها له لانتَفَتِ الوظيفة الكونيّة للشّريعة الإلهيّة، وأصبحت كلّ جماعة من البشر قادرة على الاكتفاءِ بشريعةٍ سماويّةٍ كانت مخصوصة بمرحلة تاريخيّة، أو على افتعالِ شريعةٍ وضعيّةٍ غير مُنزلة من الله تعالى.

إنَّ ما يقف وراء قول «هيك» بالتّعدّديّة الدّينيّة، هو نزعة لا أدريّة، يمكن كشفها في تفكيره على أساس فكرة جوهريّة قال بها هي «الغموض الدِّينيّ»، وفحوى هذه الفكرة أنّ أدلّة المؤمنين

بالأديان السّماوية غير كافية لتفسير معنى الوجود، كما أنَّ أدلة الرّافضين للأديان غير مقنعة. وتقتضي هذه الفكرة نفسها أنّه يمكن للإنسان أن يتّصل مع خالق العالم، سواء أكان ذلك بواسطة طُرق دينيّة، أم طرق غير دينيّة. وهذا يعني أنّه بمقدور الإنسان أن يتوجّه إلى الله بالطّريقة الّتي يراها مناسبة، حتّى لو لم يكن مؤمنًا بالأديان السّماويّة، ويمكن للمؤمن بأيّ دين سماويّ أو وضعيّ، أن يعبد الله وفق قواعد إيمانه الدِّينيّ.

ولقد أكّد «هيك» على أنّه لا يمكن لأيِّ دين، أن يدّعي أنّه يمثّل الشّريعة النّهائيّة الّتي شرّعها الله للنّاس. وبذا يُسوِّغ للمؤمنين بأيّ دين موجود في العالم، كي يعبدوا الله كما يشاؤون. ومن هنا، يضع فرضيته عن التّعدُّديّة الدّينيّة، الّتي يقبل فيها كلّ الأديان العالميّة بصفتها تقاليدَ لمعرفة الله، من جهة أنَّ كلَّ دينٍ منها يُعَدّ تقليدًا مستقلاً ومخصوصًا على المستوى الحضاريّ، يمكن بوساطته فهم إرادة الله.

قال «هيك»: «يجب حُسبان هذه التّقاليد طُرقاً خلاصيّة بديلة، أو طُرقاً يمكن بوساطتها للرّجال والنِّساء، أن يجدوا الخلاص، أو التّحرر، أو الاستغراق النّهائيّ»[1].

يكشف موقف «هيك»، عن أنّه لا يقول بالتّعدّديّة الدّينيّة من منطلق احترام الأديان الأخرى؛ وإنّما من منطلق، أنّه لا يوجد أيّ دين يمكن إثبات أنّه التّعبير الحقيقيّ عن الإرادة الإلهيّة، ولذلك تتساوى الأديان كلُّها-في نظره-من حيث مناهج اتجاهها نحو خالق العالم، فلا أولويّة لدين على الآخر، بما أنّه من غير المتُاح الوصول إلى الله عبر شريعة مطلقة على نحو حقيقيّ. وبذا يحوّل «هيك» الأديان إلى أشكال صوريّة لا معنى لها، ويتجاوز فكرة تعاقب الأديان السّماويّة وصولاً إلى الدِّين النهائيّ.

هـ. الدِّين ليس أيديولوجيا تتوقّف على حُريّة مُعتَقِدِها

ترتبط إشكاليّة التّعدّديّة الدّينيّة بقضيّة تحتاج إلى تحليل مُعمّق، ويمكن إجلاء هذه القضيّة على أساس إيضاح حقيقة الدِّين؛ ذلك أنَّ التديُّن لا يُعَدُّ، أصلاً، فعلاً صاعداً من الإنسان إلى الله تعالى بِقَدْر ما يُعَدّ، في جوهره، وحياً مُنْزَلاً من الله تعالى على النّاس بوساطة الأنبياء. إذ لا يملك

1 -John Hick, An Interpretation of Religion, p.240.

أيُّ إنسان الحقّ في أن يشترع، لنفسه ولا لغيرِه، شريعة، ولا سُنّةً، ولا منهاجاً، كي يستند إليهم في تحديد واجباتهِ بإزاء الله تعالى، فلو تُرِك هذا الأمر للبشر، لوجدنا أنفسنا أمام كمٍّ هائل من الآراء الّتي قد تصل إلى حدّ التّناقض، ولن يكون هناك نسق جامع للنّاس يوجِّههم في علاقتهم العِباديّة مع الله تعالى؛ ولذلك تنكشفُ ماهيّةُ الدِّين بصفته وحيًا يحملُ الشَّريعة الّتي يجبُ على البشريّةِ كلِّها أن تتقيّدَ بها.

من هذا المنطلق ينبغي -إذا قبلنا أنَّ الله تعالى هو الّذي يفرضُ على النّاس الدّين الّذي يرتضيه لهم-أن نقبل في المقابل التّعدّديّة إن كان عزَّ وجلَّ يطلبُ الأخذ بها، أو نرفضها إذا كان سبحانَهُ يأمرنا باجتنابها. لكن تزداد هذه القضيّة تعقيداً بسبب وجود أديان سماويّة متعدّدة، تحديداً اليهوديّة والمسيحيّة والإسلام، إذ يعتقد أتباع كلّ دين من هذه الأديان الثّلاثة أنّهم وحدَهم الذين يتّبعون الدِّين القويم المطابق لإرادة الله تعالى؛ وبحكم أنَّ هذه الأديان ظهرت في منطقتنا نجد أنَّ إشكاليّة التّعدّديّة الدّينيّة حاضرة تاريخيًّا في مجتمعاتنا العربيّة، ومن ثَمَّ انتقلت إلى الغرب الأوروبيّ-الأمريكيّ، لكن لبست لَبوساً جديدًا متناسبًا مع الطّابع الماديّ للحضارة الغربيّة في بُعديها الأوروبيّ والأمريكيّ!

غير أنَّ ما يجب الانتباه إليه في هذا المقام، هو أنَّ الكتب المقدّسة في هذه الأديان السّماويّة الثّلاثة تتضمّن عبارات، أو آيات يجب الوقوف عندها، لأنّها تُعَدّ سِنخَ إشكاليّة التّعدّديّة الدِّينيّة.

نجد عند المتُدينين اليهود اعتقادًا حاسمًا بأنّهم شعب الله المختار، فقد ورد، تمثيلاً لا حصراً، في سِفْر اللاّويين من العهد العتيق الآتي: «قُلْتُ لَكُمْ: تَرِثُونَ أَنْتُمْ أَرْضَهُمْ، وَأَنَا أُعْطِيكُمْ إِيَّاهَا لِتَرِثُوهَا، أَرْضًا تَفِيضُ لَبَنًا وَعَسَلاً. أَنَا الرَّبُّ إِلهُكُمُ الَّذِي مَيَّزَكُمْ مِنَ الشُّعُوبِ.[1]» (يظهر أنَّ المتديّن اليهوديّ الّذي يقرأ هذه العبارة لن يقبل-وهذا هو الواقع-إلاّ أن يكون فردًا من شعب الله المختار، ولن ينتقل إلى دين آخر غير اليهوديّة، حتّى لا يفقد ميزته بصفته مختاراً من الله تعالى.

كما نجد أيضاً عند المؤمنين المسيحيّين قناعةً راسخةً، بأنَّ الدِّين المسيحيّ هو الطّريق الوحيد إلى الله تعالى، فقد ورد في العهد الجديد أنَّ السّيد المسيحعليه السلام قد قال: «أَنَا هُوَ الطَّرِيقُ وَالْحَقُّ

1 -سِفْر اللاويين (24: 20).

وَالْحَيَاةُ. لَيْسَ أَحَدٌ يَأْتِي إِلَى الآبِ إِلاَّ بِي.[1]»

وهنا يتبيّن أنَّ أيّ مؤمن مسيحيّ سيقرأ هذه العبارة، سيتيقّن من أنَّ دينه هو الدِّين الوحيد الموصِل إلى الله تعالى.

كما نقرأ في الذِّكر الحكيم قوله تعالى: **﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾**[2]. ولا ريب في أنَّ المفعول المعنويّ لهذه الآية الكريمة، يُحدِثُ تأثيره في نَفْسِ كلّ مسلم، ليدفعه إلى التمسّك بالإسلام بصفته الدِّين النهائيّ للإنسانيّة كلّها.

تنبثق هنا إشكاليّة مركّبة إلى أقصى حدّ، فتمسُّك أتباع كلِّ دينٍ سماويٍّ بدينهم استنادًا إلى عبارات أو آيات موجودة في كتبهم المقدّسة هو الّذي أفضى، تاريخيًّا، إلى ظاهرة التّعدّديّة الدّينيّة، وكرّسها في التّاريخ العالميّ، وصولاً إلى الحضارة الغربيّة.

لكن لا بدّ من الإنْتبَاهِ في هذا الاتّجاه إلى أنَّ إشكاليّة التعدّديّة الدّينيّة، هي إشكاليّة قائمة ومتأصِّلة، ولا يمكن الوصول إلى حلّ لها، إذا حصرناها على وجه التّحديد بإرادات النّاس واختياراتهم الحرّة؛ أمّا إذا فهمناها من جهة الإرادة الإلهيّة، فسَرعان ما تزول هذه الإشكاليّة مرَّة واحدة وإلى الأبد. وآية ذلك أنّنا إذا تأمّلنا في موقف اليهود من المسيح عليه السلام، لوجدناهم رافضين له، لأنّهم ينتظرون مسيحًا من نسل داوود عليه السلام، وليس موقفهم من الإسلام بأفضل من موقفهم من المسيحيّة. ولئن كانَ المسيحيون يعترفون بالدِّين اليهوديّ، إلّا أنَّ هناك التباساتٍ كثيرةً، في نظرتهم إلى الإسلام؛ بيد أنَّ الدِّين الإسلاميّ يعترف باليهوديّة والمسيحيّة بصفتهما ديانتين سماويتين، ويجب على كلّ مسلم_حتى يصحّ إسلامه_أن يعترف بنبوّة موسى وعيسى عليهما السّلام، بَلْهَ أن يعترف بنبوّة الأنبياء قبل النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله. وهذا يعني أنَّ القرآن الكريم بصفته الكتاب المقدّس عند المسلمين، جاء تتويجًا وإكمالاً وخاتمةً للكتب السّماويّة كلّها، ولولا ذلك لما اعترف بها. وإذا امتلك الإنسان عقلاً واعيًا، لاكتشف أنَّ الشريعة الإسلاميّة تكتنفُ في داخلها ما سبقها من شرائع، أي أنّها تكملة نهائيّة لهذه الشّرائع كافّةً، أو بالأحرى الدِّين الإسلاميّ

1 -يوحنا (6:14).

2 -سورة آل عمران: 19.

في الحقيقة، يدلّ على حركة الأديان السّماويّة عِبْر مسار التّاريخ الإنسانيّ، فالأديان السّماويّة هي مراحل من الإسلام نفسه، وكلّ مرحلة أفضت إلى المرحلة الّتي تليها وصولاً إلى الإسلام؛ بل كلّ ما جاء به الأنبياء والرُّسل، هو أجزاء بلغت اكتمالها النّهائيّ بما جاء به النبيّ محمّد ﷺ، فالدِّين الوحيد الّذي أراده الله تعالى للإنسانيّة كلّها هو الإسلام، وكلّ ما قام به الرُّسل والأنبياء من دعوات لعبادة الله تعالى، هو جهود متدرِّجة عبر العصور التّاريخيّة لإرساء الوحدانيّة الإلهيّة بين النّاس، إلى أن اكتملت الدّعوة إلى وحدانية الله وطاعته في الإسلام، بمجيء خاتم الرُّسل. ويمكن التّدليل على هذا الكلام بما ورد في القرآن الكريم من آيات بيِّنات، على أنَّ الإسلام هو غاية الرّسل والأنبياء كافّةً. أعلمنا تعالى بموقف النّبيّ نوح عليه السلام حين قال: ﴿ **وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[1]. وعرّفنا سبحانه حال إبراهيم عليه السلام: ﴿ **إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾[2].. وأخبرنا جلَّ وعلا عن موسى عليه السلام: ﴿ **يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّه فَعَلَيْه تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِين** ﴾[3]. وأطلعنا جلّ شأنه على تلاميذ نبيّ الله عيسى عليه السلام: ﴿ **وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا واشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ** ﴾[4].

يتبيّن أنَّ الإسلام هو الرّسالة السّماويّة الوحيدة، الّتي أرادها الله تعالى للإنسانيّة كلّها من أجل هدايتها، وما تعاليم الرّسل والأنبياء إلّا صيرورة كبرى، بلغت تمامها في الشّريعة الإسلاميّة؛ لذلك الطّريق إلى الله تعالى يقتضي الإيمان بالإسلام بصفته الدِّين المُكمَّل، أيْ الدِّين الّذي أكمله الله تعالى للإنسانيّة كلِّها، لأنَّ الأديان الّتي سبقته لم تكن كاملة. قال تعالى: ﴿ **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا** ﴾[5]. من هنا نستنبط أنَّ الأصل في الدِّين أن يكون ديناً واحداً للخلق كافّةً، وواحديّة الدِّين هنا تختلف عن النّزعة الأُحاديّة، الّتي تُغلِّب دينًا بعينه على الدِّين الحقّ؛ زدْ على ذلك أنَّ وحدانيّة الله تعالى تقتضي واحديّة الدِّين، وليست التّعدّديّة إلّا سبباً من أسباب زيادة التّيه بين النّاس، ولذلك ليست دعوى التّعدّديّة الآن

1 -سورة يونس: 72.
2 -سورة البقرة: 131.
3 -سورة يونس: 84.
4 -المائدة: 111.
5 -سورة المائدة: 3.

في الغرب، ولا الّدعوة إليها إلاّ محاولة، الهدف منها هو تحويل الدِّين الواحد _الّذي أراده الله تعالى طريقاً لخلاص البشريّة_ إلى حالة صوريّة فارغة من المعنى، حينما يُقبَل هذا الدِّين الكامل بصفته وجهًا من وجوه كثيرة للظّاهرة الدّينيّة، ولقد بدأ هذا الالتباس في ثقافتنا العربيّة أو الشّرقيّة، ثمّ انتقل إلى الثّقافة الغربيّة؛ فاليهوديّة والمسيحيّة والإسلام أديانٌ ظهرت، تاريخيًّا، في منطقتنا، ثمّ انتقلت جغرافيًّا إلى الغرب.

خاتمة

إنّ مفهوم التّعدّديّة الدِّينيّة يقوم على فَهْم نسبيّ للحقائق الّتي تقدّمها الأديان، تحديداً السّماويّة منها، فلا يوجد أيّ دين، في أُفق هذا الفهم يكون بمقدوره أن يقدّم الحقيقة المطلقة لمُعتنقيه أو للنّاس؛ ولذلك لا بدّ من إفساح المجال للأديان كلّها، ليُعبرِّ معتنقوها عن مشاعرهم الدِّينيّة بالطريقة الّتي يرونها مناسبة.

يمكن أن يكونَ إطلاقُ الحرّيات الدينيّة من عِقَالها في الغرب الأوروبي"»-الأمريكيّ، عملاً مشروعًا من جهة إتاحة الفرصة لكلّ إنسان كيما يُعبرِّ عن عقيدته، الّتي يراها -وفقاً لفهمه- الطّريق الأمثل لبلوغ الحقيقة النهائيّة. وبما أنَّ العقائد متعدِّدة بتعدُّدِ الأديان، سواء أكانت سماويّة أم وضعيّة، فإنَّه لم يَعُدْ أمام الإنسان الغربيّ اتّجاهٌ واحدٌ وحيدٌ نحو الخَلاص، بل تعدّدت طرق الخلاص ولم تَعُدْ المُفاضلة بينها ممكنة؛ ذلك أنَّ تأصيل فكرة التّعدّديّة الدّينيّة، يقدحُ في التّصوّر الرّئيس الّذي تقوم عليه ماهيّة الدِّين، وهو تصوّر الحقيقة الإلهيّة المطلقة، فلولا وجود الله تعالى، لما كان للتدّين أيّ معنى.

وإذا تعمّقنا في فهم جوهر التدِّين، لوجدنا أنّه علاقة عِباديّة بين الإنسان والله تعالى، لكن لا يمكنُ أن يكونَ الإنسانُ حُرًّا في اختيار هذه العلاقة وتحديد طبيعتها؛ بل عليه أن يقبلها كما فرضها الله تعالى عليه، وإلاّ لأصبح التدّين ضرباً من أيديولوجيا، يمكن أن تؤخَذ أو تُترك أو يُستعاض عنها بغيرها في أيّ وقت.

ولا ريب في أنَّ قبول فكرة التّعدّديّة الدّينيّة، يقتضي حتماً أنَّ الإنسان القابِل لذلك يضع نفسه

موضع الذّات الإلهيّة المقدّسة، ويُعطي لنفسه حقًّا ليس له على الإطلاق، وهو التّعبير عن إرادة الله تعالى، والنّيابةِ عنه في تِبيان طُرق عبادته، وهذا أمر غيرُ مُتاحٍ للأَناسيّ؛ لأنَّ اللهَ وحدَه هو الّذي يُحدِّد الطريقة النّهائيّة لعبادته، ممثّلةً بشريعةٍ سماويّة أخيرة، يجب على النّاس كافّةً أن يختاروها. وهنا لا يوجد أيّ مجال للحريّة الإنسانيّة، كيما يكون لها أيّ وظيفة في استبدال شريعة أُخرى -حتى لو كانت سماويّة- بالشريعة الّتي فرضها الله تعالى بصفتها الشّريعة النّهائيّة. وعليه، تتلخّص وجهة النّظر الإسلاميّة، في توكيد أنَّ الدّين عند الله هو «الإسلام»، هذا من جهة عقَديّة محض؛ أمّا من جهة واقعيّة حياتيّة، فلا يجوز إرغام أيّ إنسان على اعتناق الإسلام، إذ قال تعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾[1].

لائحة المصادر والمراجع:

1. CATHERINE NIXEY, THE DARKENING AGE The Christian Destruction of the Classical World, MACMILLAN, 2017.
2. Daniel Goffman, The Ottoman Empire and Early Modern Europe, Cambridge: Cambridge University Press, 2002.
3. E.g., Walsh, W. H., 1967, «Kant, Immanuel: Philosophy of Religion», The Encyclopedia of Philosophy, Volume Four, Paul Edwards (ed.), New York: Macmillan Publishing Co. Inc. & The Free Press.
4. Immanuel Kant, Essay on the maladies of the head, in: Observations on the Feeling of the Beautiful and Sublime and Other Writings, Edited by PATRICK FRIERSON PAUL GUYER With An Introduction by PATRICK FRIERSON, Cambridge University Press, 2011.
5. Immanuel Kant, Religion within the Limits of Reason Alone, Translated by Theodore M. Greene & Hoyt H. Hudson, Harper & Row publishers, 1960.
6. Jared Diamond (1993). 'Who are the Gwes?» (PDF). Archived from the original (PDF) on July 21, 2011. Retrieved November 8, 2010. Natural History 102:11 (November 1993):

1 - البقرة: 256.

12–19.

7. John Hick, An Interpretation of Religion: Human Responses to the Transcendent, 2d. ed. New Haven: Yale University Press, 2004 (1989).

8. Katharina Beeler, Calvin's Attitude Toward the Turks: Negative Impact on Ministry, Dialogue and Missions Among Muslims? https://theologyandthecity-com.translate.goog/2015/01/02/john-calvin-on-islam/?_x_tr_sl=en&_x_tr_tl=ar&_x_tr_hl=ar&_x_tr_pto=sc

9. Myles Hudson, Fall of Constantinople, Encyclopædia Britannica. https://www-britannica-com.translate.goog/event/Fall-of-Constantinople-1453

10. Nina Row, The Jew, the Cathedral and the Medieval City: Synagoga and and Ecclesia in the 13th Century, Cambridge University Press, 2011 p. 30.

11. Pier Cesare Bori. «The Italian Renaissance: An Unfinished Dawn?: Pico della Mirandola «. http://didattica.spbo.unibo.it/pais/bori/articolo010.html

12. Peter E. Prosser (2001). «Church history s biggest hoax: Renaissance scholarship proved fatal for one of medieval papacy s favorite claims». Christian History. 20 (Journal Article): 35–.ISSN 0891-9666. https://brewminate.com/the-fake-medieval-donation-of-constantine/

13. Rasyidah Arshad, Syaidatun Nazirah Abu Zaher & Nurul Shahirah Abdul Samad, The Impact of Spanish Inquisition on Islamic Civilization,pp.202-203., MALIM: Jurnal Pengajian Umum Asia Tenggara 21(2020): 199–208 https://doi.org/10.17576/malim-2020-2101-16.

14. The Collected Works of Erasmus, (no primary editor), Toronto: University of Toronto Press, 1974.

15. Verdict and Sentence for Michael Servetus (1533) in A Reformation Reader eds. Denis R. Janz.